

الفصل الثالث

تعليق الإمام ابن قيم الجوزية

على كلام ابن حزم

رد الإمام الحافظ ابن قيم الجوزية على كلام الإمام ابن حزم وأرجعه إلى تعاليم مذهبه الذي اختاره لنفسه وهو المذهب الظاهري الذي تحول إليه بعد أن كان شافعيًا، ثم فند بعد ذلك أقوالاً أخرى للإمام الباقلاني، وذكر في النهاية القول الراجح في مستقر الأرواح. قال ابن قيم الجوزية^(١):

وأما قول أبي محمد بن حزم: إن مستقرها حيث كانت قبل خلق أجسادها. فهذا بناء منه على مذهبه الذي اختاره، وهو أن الأرواح مخلوقة قبل الأجساد، وهذا فيه قولان للناس وجهورهم. على أن الأرواح خلقت بعد الأجساد، والذين قالوا: إنها خلقت قبل الأجساد ليس معهم على ذلك دليل من كتاب ولا سنة ولا إجماع، إلا ما فهموه من نصوص لا تدل على ذلك أو أحاديث لا تصح، كما احتج به أبو محمد بن حزم من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنَىٰ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾^(٢) الآية. ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾^(٣) قال: فصح أن الله خلق الأرواح جملة وهي الأنفس، وكذلك أخبر، عليه السلام: ((أن الأرواح جنود مجندة. فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف))^(٤) قال: وأخذ عز وجل عهدها وشهادتها، وهي مخلوقة مصورة عاقلة قبل أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم وقبل أن يدخلها في الأجساد، والأجساد يومئذ تراب، وقال: لأن الله تعالى خلق ذلك بلفظة - ثم التي توجب التعقيب والمهلة - ثم أقرها

(١) كتاب الروح، القاهرة ١٩٩٣، ص ١٣٧ - ١٤٦.

(٢) الأعراف: ١٧٢.

(٣) الأعراف: ١١.

(٤) أخرجه مسلم.

سبحانه وتعالى، حيث شاء، وهو البرزخ الذى ترجع إليه عند الموت، وسنذكر ما فى هذا الاستدلال عند جواب سؤال السائل عن الأرواح هى مخلوقة مع الأبدان أم قبلها؟ إذ الغرض هنا الكلام على مستقر الأرواح بعد الموت، وقوله: إنها تستقر فى البرزخ الذى كانت فيه قبل خلق الأجساد، مبنى على هذا الاعتقاد الذى اعتقدوه، وقوله: إن أرواح السعداء عن يمين آدم وأرواح الكفار الأشقياء عن يساره حق أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم، وقوله: إن ذلك عند منقطع العناصر لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ولا يشبه أقوال أهل الإسلام، والأحاديث الصحيحة تدل على أن الأرواح فوق العناصر فى الجنة عند الله، وأدلة القرآن على ذلك، وقد وافق أبو محمد على أن أرواح الشهداء فى الجنة ومعلوم أن الصديقين أفضل منهم، فكيف تكون روح أبى بكر الصديق، وعبد الله ابن مسعود وأبى الدرداء، وحذيفة بن اليمان، وأشباههم رضى الله عنهم، عند منقطع العناصر وذلك تحت هذا الفلك الأدنى وتحت السماء الدنيا، وتكون أرواح شهداء زماننا وغيرهم فوق العناصر وفوق السماوات.

وأما قوله: قد ذكر محمد بن نصر المروزي، عن إسحاق بن راهويه، أنه ذكر هذا الذى قلناه بعينه. قال: وعلى هذا جميع أهل العلم وهو قول جميع أهل الإسلام.

قلت: محمد بن نصر المروزي ذكر فى كتاب (الرد على ابن قتيبة) فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (١). الآثار التى ذكرها السلف من استخراج ذرية آدم من صلبه ثم أخذ الميثاق عليهم وردهم فى صلبه، وأنه أخرجهم مثل الذر، وأنه سبحانه قسمهم إذ ذاك إلى شقى وسعيد، وكتب آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وما يصيبهم من خير وشر.

ثم قال إسحاق: أجمع أهل العلم أن الأرواح قبل الأجساد، استنطقهم وأشهدهم على أنفسهم ألسنت بربكم؟ قالوا: بلى، شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل. هذا نص كلامه، وهو ما ترى لا يدل على أن مستقر الأرواح ما ذكر أبو محمد حيث تنقطع العناصر بوجه من الوجوه، بل ولا يدل على أن الأرواح كائنة قبل خلق الأجساد، بل إنما يدل على أنه سبحانه أخرجها حينئذ فخطبها ثم ردها إلى صلب آدم، وهذا القول وإن كان قد قاله جماعة من السلف والخلف فالقول الصحيح غيره كما ستقف عليه إن شاء الله، إذ ليس الغرض فى جواب هذه المسألة الكلام فى الأرواح هل هى مخلوقة قبل الأجساد أم لا؟ حتى لو سلم لأبى محمد هذا كله لم يكن فيه دليل على أن مستقرها حيث تنقطع العناصر، ولا أن ذلك الموضوع كان مستقرها أو لا.

قول من قال: الروح مستقرها العدم المحض

وأما قول من قال: مستقرها العدم المحض.

فهذا قول من قال: إنها عرض من أعراض البدن وهو الحياة، وهذا قول الباقلاني ومن تبعه.

وكذلك قال أبو الهذيل العلاف: النفس عرض من الأعراض ولم يعينه بأنه الحياة كما عينه ابن الباقلاني، ثم قال: هي عرض كسائر أعراض الجسم وهؤلاء عندهم أن الجسم إذا مات عدمت روحه كما تقدم وسائر أعراضه المشروطة بالحياة ومن يقول منهم: إن العرض لا يبقى زمانين كما يقول أكثر الأشعرية، فمن قولهم: إن روح الإنسان الآن هي غير روحه قبل، وهو لا ينفك يحدث له روح ثم تغير ثم روح ثم تغير هكذا أبداً، فيبدل له ألف روح فأكثر فى مقدار ساعة من الزمان فما دونها، فإذا مات فلا روح تصعد إلى السماء وتعود إلى القبر وتقبضها الملائكة ويستفتحون لها أبواب السماوات، ولا تنعم ولا تعذب، وإنما ينعم ويعذب الجسد إذا شاء الله تنعيمه وتعذيبه رد إليه الحياة فى وقت يريد نعيمه وعذابه، وإلا فلا روح هناك قائمة بنفسها البتة.

وقال بعض أرباب هذا القول: ترد الحياة إلى عجب الذنب، فهو الذى يعذب وينعم وحسب، وهذا قول يرده الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقول والفطن والفطرة، وهو قول من لم يعرف روحه فضلاً عن روح غيره، وقد خاطب الله سبحانه النفس بالرجوع والدخول والخروج، ودلت النصوص الصحيحة الصريحة على أنها تصعد وتنزل وتقبض وتمسك وترسل وتستفتح لها أبواب السماء وتسجد وتكلم، وأنها تخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، وتكفن وتحنط فى أكفان الجنة والنار، وأن ملك الموت يأخذها بيده ثم تتناولها الملائكة من يده، ويشم لها كأطيب نفحة مسك أو أثنى جيفة، وتشيع من سماء إلى سماء، ثم تعاد إلى الأرض مع الملائكة، وأنها إذا أخرجت تبعها البصر بحيث يراها وهى خارجة.

ودل القرآن على أنها تنتقل من مكان إلى مكان حتى تبلغ الحلقوم فى حركتها، وجميع ما ذكرنا من الأدلة الدالة على تلاقى الأرواح وتعارفها وأنها أجناد مجندة إلى غير ذلك، تبطل هذا القول.

وقد شاهد النبى صلى الله عليه وسلم الأرواح ليلة الإسراء عن يمين آدم وشاله، وأخبر النبى صلى الله عليه وسلم: (أن نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة). (أن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر).

وأخبر تعالى عن أرواح آل فرعون أنها تعرض على النار غدوًا وعشيًا. ولما أورد ذلك على أن الباقلا نى لج فى الجواب، وقال: يخرج على هذا أحد وجهين، إما بأن يوضع عرض من الحياة فى أول جزء من أجزاء الجسم، وإما أن يخلق لتلك الحياة والنعيم والعذاب جسد آخر.

وهذا قول فى غاية الفساد من وجوه كثيرة، وأى قول أفسد من قول من يجعل روح الإنسان عرضًا من الأعراض تتبدل كل ساعة ألوفاً من المرات، فإذا فارقه هذا العرض، لم يكن بعد المفارقة روح تنعم ولا تعذب ولا تصعد ولا تنزل ولا تمسك ولا ترسل، فهذا قول مخالف للعقل ونصوص الكتاب والسنة والفطرة، وهو قول من لم يعرف نفسه.

وسأتنى ذكر الوجوه الدالة على بطلان هذا القول فى موضعه من هذا الجواب إن شاء الله - وهو قول لم يقل به أحد من سلف الأمة، ولا من الصحابة والتابعين ولا أئمة الإسلام.

قول من قال: الأرواح مستقرها بعد الموت أبدان آخر غير هذه الأبدان

وأما قول من قال: إن مستقرها بعد الموت أبدان آخر غير هذه الأبدان، فهذا القول فى حق وباطل: فأما الحق: فما أخبر الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام عن أرواح الشهداء أنها فى حواصل طير خضر تأوى إلى قناديل معلقة بالعرش هى لها كالأوكار للطائر وقد صرح بذلك فى قوله: ((جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر))، وأما قوله صلى الله عليه وسلم: ((نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة))، يحتفل أن يكون هذا الطائر مركبًا للروح كالبدن لها ويكون ذلك لبعض المؤمنين والشهداء، ويحتفل أن يكون الروح فى صورة طائر، وهذا اختيار أبى محمد بن حزم، وأبى عمر بن عبد البر، وقد تقدم كلام أبى عمر والكلام عليه، وأما ابن حزم فإنه قال: معنى قوله، صلى الله عليه وسلم: ((نسمة المؤمن طائر يعلق))، وهو على ظاهره لا على ظن أهل الجهل وإنما أخبر، صلى الله عليه وسلم أن نسمة المؤمن طائر يعلق، بمعنى أنها تطير فى الجنة لا أنها تمسخ فى صورة الطير.

قال: فإن قيل: إن النسمة مؤنثة قلنا: قد صح عن عربى فصيح أنه قال: أتنك كتابى فاستخففت بها، فقيل له: أتنوث الكتاب؟ قال: أو ليس صحيفة، وكذلك النسمة تذكر كذلك.

قال: وأما الزيادة فيها أنها فى حواصل طير خضر فإنها صفة تلك القناديل التى تأوى إليها، والحديثان معًا حديث واحد، وهذا الذى قاله فى غاية الفساد لفظًا ومعنى فإن حديث ((نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة))، غير حديث ((أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر)) والذى ذكره يحتفل فى الحديث الأول، وأما الحديث الثانى فلا يحتمله بوجه، فإنه صلى الله عليه

وسلم، أخبر أن أرواحهم في حواصل طير. وفي لفظ ((في أجواف طير خضر)) وفي لفظ ((بيض)) وأن تلك الطير تسرح في الجنة فتأكل من ثمارها وتشرب من أنهارها، ثم تأوى إلى قناديل تحت العرش هي لها كالأوكار للطائر، وقوله: إن حواصل تلك الطير هي صفة القناديل التي تأوى إليها خطأ قطعاً، بل تلك القناديل مأوى لتلك الطير فهنا ثلاثة أمور صرح بها الحديث: أرواح، وطير هي في أجوافها، وقناديل هي مأوى لتلك الطير، والقناديل مستقرة تحت العرش لا تسرح، والطير تسرح وتذهب وتجيء والأرواح في أجوافها.

فإن قيل: يحتمل أن تجعل نفسها في صورة طير، لا أنها تتركب في بدن طير كما قال تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾^(١). ويدل عليه قوله في اللفظ الآخر: ((أرواحهم كطير خضر)) كذلك رواه ابن أبي شيبة، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، عن عبد الله، قال أبو عمر: والذي يشبه عندي والله أعلم، أن يكون القول قول من قال: كطير أو صورة طير لمطابقته لحديثنا المذكور، يعنى حديث كعب بن مالك في نسمة المؤمن.

فالجواب: أن هذا الحديث قد روى بهذين اللفظين، والذي رواه مسلم في الصحيح من حديث الأعمش عن مسروق فلم يختلف حديثها أنها في أجواف طير خضر.

وأما حديث ابن عباس فقال عثمان بن أبي شيبة: ثنا عبد الله بن إدريس، عن محمد بن إسحاق، عن إسماعيل بن أمية، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لما أصيب إخوانكم - يعنى يوم أحد - جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل من ذهب مدلاة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم، قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء في الجنة، نرزق لثلاً ينكبوا عن الحرب، ولا يزهدوا في الجهاد، فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَبَنَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(٢).

وأما حديث كعب بن مالك فهو في السنن الأربعة ومسند أحمد ولفظه للترمذى: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إن أرواح الشهداء في طير خضر تعلق من ثمر الجنة أو شجر الجنة)) قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح.

ولا محذور في هذا ولا يبطل قاعدة من قواعد الشرع ولا يخالف نصاً من كتاب ولا سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل هذا من تمام إكرام الله للشهداء أن أعاضهم من أبدانهم التي

(١) الانفطار: ٨.

(٢) آل عمران: ١٦٩.

مزقوها لله أبدانًا خيرًا منها تكون مركبًا لأرواحهم ليحصل بها كمال تنعمهم، فإذا كان يوم القيامة رد أرواحهم إلى تلك الأبدان التي كانت فيها في الدنيا.

فإن قيل: فهذا هو القول بالتناسخ وحلول الأرواح في أبدان غير أبدانها التي كانت فيها. قيل: هذا المعنى الذى دلت عليه السنة الصريحة حق يجب اعتقاده، ولا يبطله تسمية المسمى له تناسخًا، كما أن إثبات ما دل عليه العقل والنقل من صفات الله عز وجل، وحقائق أسائه الحسنى حق لا يبطله تسمية المعطلين لها تركيبيًا وتجسييًّا.

وكذلك ما دل عليه العقل والنقل من إثبات أفعاله وكلامه بمشيئته، ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا، ومجيئه يوم القيامة للفصل بين عبادته حق. لا يبطله تسمية المعطلين له حلول حوادث، وكما أن ما دل عليه العقل والنقل من علو الله على خلقه، ومباينته لهم، واستوائه على عرشه، وعروج الملائكة والروح إليه ونزولها من عنده، وصعود الكلم الطيب إليه، وعروج رسوله إليه ودنوه منه حتى صار قاب قوسين أو أدنى، وغير ذلك من الأدلة حق لا يبطله تسمية الجهمية له حيزًا أو جهة أو تجسييًّا.

قال الإمام أحمد: لا نزول عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة المشنعين، فإن هذا شأن أهل البدع يلقبون أهل السنة وأقوالهم بالألقاب التي ينفرون منها الحال ويسمونها حشواً وتركيباً وتجسيماً، ويسمون عرش الرب تبارك وتعالى حيزاً أو جهة ليتوصلوا بذلك إلى نفى علوه على خلقه واستوائه على عرشه، كما تسمى الرافضة موالاة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، كلهم ومحبتهم والدعاء لهم نصباً، وكما تسمى القدرية المجوسية إثبات القدر جبراً، فليس الشأن في الألقاب وإنما الشأن في الحقائق.

والمقصود: أن تسمية ما دلت عليه السنة الصريحة من جعل أرواح الشهداء في أجواف طير خضر تناسخًا لا يبطل هذا المعنى، وإنما التناسخ الباطل ما تقوله أعداء الرسل من الملاحدة وغيرهم الذين ينكرون المعاد: أن الأرواح تصير بعد مفارقة الأبدان إلى أجناس الحيوان والحشرات والطيور التي تناسبها وتشاكلها، فإذا فارقت هذه الأبدان انتقلت إلى أبدان تلك الحيوانات فتتم فيها أو تعذب ثم تفارقها، وتحل في أبدان آخر تناسب أعمالها وأخلاقها، وهكذا أبداً فهذا معاداً عندهم ونعيمها وعذابها لا معاد لها عندهم غير ذلك.

فهذا هو التناسخ الباطل المخالف لما اتفقت عليه الرسل والأنبياء من أولهم إلى آخرهم، وهو كفر بالله واليوم الآخر وهذه الطائفة تقول: إن مستقر الأرواح بعد المفارقة أبدان الحيوانات التي تناسبها، وهو أبطل قول وأخبثه، ويليه قول من قال: إن الأرواح تعدم جملة بالموت، ولا

تبقى هناك روح تنعم ولا تعذب، بل النعيم والعذاب يقع على أجزاء الجسد أو على جزء منه إما عجب أو غيره، فيخلق الله فيه الألم واللذة.

إما بواسطة إعادة الحياة إليه كما قاله بعض أرباب هذا القول أو بدون رد الحياة كما قاله آخرون منهم، فهؤلاء عندهم لا عذاب في البرزخ إلا على الأجساد، ومقابلهم من يقول: إن الروح لا تعاد إلى الجسد بوجه ولا تتصل به، والعذاب والنعيم على الروح فقط، والسنة الصريحة المتواترة ترد قول هؤلاء وهؤلاء وتبين أن العذاب على الروح والجسد مجتمعين ومنفردين.

القول الراجح في مستقر الأرواح

فإن قيل: فقد ذكرت أقوال الناس في مستقر الأرواح ومأخذهم، فما هو الراجح من هذه الأقوال حتى نعتقه؟

قيل: الأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت.

فمنها: أرواح في أعلى عليين في الملاء الأعلى، وهى أرواح الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، وهم متفاوتون في منازلهم كما رآهم النبي صلى الله عليه وسلم، ليلة الإسراء.

ومنها: أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، وهى أرواح بعض الشهداء لا جميعهم، بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه أو غيره، كما في المسند عن محمد بن عبد الله بن جحش: ((أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ((يا رسول الله، ما لى إن قتلت في سبيل الله؟ قال: الجنة، فلما ولى قال: إلا الذين سارنى به جبريل آنفاً)).

ومنهم: من يكون محبوباً على باب الجنة كما في الحديث الآخر: ((رأيت صاحبكم محبوباً على باب الجنة)).

ومنهم: من يكون محبوباً في قبره، كحديث صاحب الشملة التى غلها ثم استشهد فقال الناس: هنيئاً له الجنة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((والذى نفسى بيده إن الشملة التى غلها لتشتعل عليه ناراً في قبره)).^(١)

ومنهم: من يكون مقره باب الجنة كما في حديث ابن عباس: ((الشهداء على بارق نهر يباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم راقهم من الجنة بكرة وعشية)) رواه أحمد، وهذا بخلاف جعفر ابن أبي طالب حيث أبدله الله من يديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء. ومنهم: من يكون

(١) رواه مسلم.

محبوسًا في الأرض لم تعل روحه إلى الملاء الأعلى، فإنها كانت روحًا سفلية أرضية، فإن الأنفس الأرضية لا تجامع الأنفس السماوية، كما لا تجامعها في الدنيا، والنفس التي لم تكسب في الدنيا معرفة ربها ومحبتة وذكره والأنس به والتقرب إليه، بل هي أرضية سفلية لا تكون بعد المفارقة لبدنها إلا هناك، كما أن النفس العلوية التي كانت في الدنيا عاكفة على محبة الله وذكره والتقرب إليه والأنس به تكون بعد المفارقة مع الأرواح العلوية المناسبة لها، فالمرء مع من أحب في البرزخ ويوم القيامة، والله تعالى يزوج النفوس بعضها ببعض في البرزخ، ويوم المعاد، كما تقدم في الحديث، ويجعل روحه - يعنى المؤمن - مع النسيم الطيب، أى الأرواح الطيبة المشاكلة لروحه، فالروح بعد المفارقة تلحق بأشكالها وإخوانها وأصحاب عملها، فتكون معهم هناك. ومنها: أرواح تكون في تنور الزناة والزواني، وأرواح في نهر الدم تسبح فيه، وتلقم الحجارة فليس للأرواح سعيدها وشقيها مستقر واحد، بل روح في أهل عليين وروح أرضية سفلية لا تصعد عن الأرض، وأنت إذا تأملت السنن والآثار في هذا الباب، وكان لك بها فضل اعتناء، عرفت حجة ذلك، ولا تظن أن بين الآثار الصحيحة في هذا الباب تعارضًا، فإنها كلها حق يصدق بعضها بعضًا، لكن الشأن في فهمها ومعرفة النفس وأحكامها، وأن لها شأنًا غير شأن البدن، وأنها مع كونها في الجنة فهي في السماء وتتصل بفناء القبر وبالبدن فيه، وهي أسرع شيء حركة وانتقالات وصعودًا وهبوطًا، وأنها تنقسم إلى مرسله ومحبوسة وعلوية وسفلية، ولها بعد المفارقة صحة ومرض ولذة ونعيم وألم أعظم مما كان لها حال اتصالها بالبدن بكثير، فهناك الحبس والألم والعذاب والمرح والحسرة، وهنالك اللذة والراحة والنعيم والإطلاق. وما أشبه حالها في هذا البدن بحال الولد في بطن أمه، وحالها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن إلى هذه الدار.